من أصداء البحر

بين عشية وضحاها

للأستاذ إبراهيم العريض

— ١ —

على شاطىء البَحْرِ .. فى قَرْيَةٍ تلوحُ بعُزْلتِهـا الدائمَهْ
كأنَّ الدُجى لفَّها بالسُكونِ فما بَرِحَتْ دهْرَها نائمَه
تُطِلُّ عليها عَروسُ النهارِ فتَلبثُ فى جوِّها حالمَه
وللبدْرِ فى أُفْقِها قُبلةٌ تطولُ ... ولكنَّها ناعمه
بِناءٌ يُذكِّرُ سُكَّانَها بِشامخِ أبْنِيَةِ العاصمه
يقيمُ بهِ نائبٌ — أمْرُهُ مُطاعٌ — وسطْوتُهُ غاشمه
فلوْ أيقظَ البحْرُ أمْواجَهُ لمرَّتْ بأعتابِهِ لائمه
كذلكَ كانَ شُعورُ السوادِ من الذُلِّ نحْوَ اليدِ الحاكمه
وأكْواخُهمْ وسْطَ هذا الإطارِ تموجُ بألْوانِها القاتمه

* * *

وتنتَحُ نافذةَ القصْرِ خَودٌ مساءً وتُمعِنُ إمْعانَهـا
فيحلُو لها أنْ ترى الشمْسَ تسْجُدُ سجْدةَ شُكرٍ لمَنْ زانَها
وهَبْها توارتْ وراءَ الغُيومِ فهلْ تُنكِرُ الأرضُ إحْسانَها
ويعرضُ مِرآتَهُ البحْرُ حتى تُجمِّلَ — سافِرةً — شانَها
وأمواجُه فى هُدُوءٍ أمامَ الـ نَعيمِ تُلثِمُ أردانَها
فلا هُوَ يتْرُكُها تسْتقِرُّ ولا هِيَ تهْجرُ شُطآنَها
وتُبصِرُ فى قاربٍ فِتْيةً تُمُدُّ إلى الصيْدِ أشطانَها
فيَغْمُرُها فرَحٌ بالحيـاةِ فتُعلِنُ للقصْرِ عِصْيانَها
وتخرجُ نشْوى على رمْلِهِ تُرَدِّدُ كالطيْرِ ألحانَها

* * *

وتركَبُ فى زَوْرَقٍ كالهِلالِ يعُومُ بها نجْمةً زاهِرَهْ
فتأخُذُ فى جذْفِهِ باليدَيْنِ وفى صدْرِها موْجةٌ زاخِره
ويلْثِمُ فاها نَسيمُ الأصيلِ فينْدَى بأنفاسِها العاطِره
إلى أنْ تغيبَ وراءَ السديمِ بعيدًا بأحْلامِها الطائِره
ويُدرِكُها أوَّلُ الليْلِ عنْدَ قَنارٍ يغَضُّ لها ناظِرَه
فتشْهدُ مركزَها فى الظلامِ ومن حَولها الأفْقُ كالدائِره
وتلمَحُ من بُعْدِ قصْرَها يُدِلُّ بأنوارِهِ الباهِره
فتثْنى أعِنَّتَها للرُجوعِ ... ولكنَّها ترْمى خاطِره
ويسْتَيْقِظُ البحْرُ بعدَ الهجوعِ ليُملِي إرادتَهُ القاهِرَه

* * *

ويُشرِقُ إحْساسُها فى الصباحِ مَليًّا على همَساتِ البشَرْ
فتمْلِكُها رِعْشةٌ للذى يمُرُّ على ذِهْنِها من صُوَرْ
وتذْكرُ ما كانَ من حَظِّها ومن حَظِّ زَوْرَقِها المُنكسِر
وكيفَ تقومُ بها موْجَةٌ وأخرى على جانِبَيْها تمُر
فتصْرُخُ صَرْخَتَها للحياةِ وفى حَلْقِها نَفَسٌ يُحتضَر
فتمْتَدُّ كفٌّ لإنْقاذِها من الغَيْبِ ... ذلكَ ماتذْكِر
وتشْعرُ بالدِفْءِ تحتَ اللحافِ فتعْجَبُ كيفَ احتوَتْها السُرُر
وتفْتحُ ناظِرَها بعْدَ لأْيٍ على شَبَحٍ قائِمٍ ينْتظِر
يُناشِدُها وعلى ثَغْرِهِ بيانٌ تُشيرُ بأنْ تسْتقِر

* * *

وتسْتغرِقُ المرْءُ فى نَوْمِها وتأخذُ حظًّا من العافيَهْ

ويفترُّ فى شفتيها دمٌ ... كطَلٍّ على وردةٍ زاكيه
وتحتَ يديها يزلُّ النصيفُ ... عن برْعُمَىْ صدرِها ناحيه
وملؤهما عِفَّةٌ بالجمالِ ... جمالِ أنوثتها الغافيه
فيخْنو عليها الفتى فى خشوعٍ ... ويسْتُرُ أطرافَها العاريه
ويعزفُ لحنًا على عُودِهِ ... يُذَكِّرُ عهدَ الهوى ناسيه
ويُنبعِثُ النغمُ العذبُ من ... تململِ أوتارِهِ القاسيه
إلى أن تُفيقَ فتاةُ القُصور ... وتَطْرِفَ أهدابُها ثانيه
فتَبْسُطُ راحتَها كالغريقِ ... وفى ثغرِها قُبلةٌ طافيه

ويَسْأَلُها عن عهود الصبا ... وأترابِها فى القُرَى .. مَنْ هُمُ
فتُغْضِى حياءً ... وفى رِقَّةٍ ... تَبوحُ لهُ بالذى تكتُمُ
« يداكَ تجُودانِ لى بالحياةِ ... فشُكرًا على الجُودِ يا مُنعِمُ !
وهبْتُكَ قلبى . فخُذْنى إليكَ ... ومُرْنى أُطِعْكَ بما تحكُمُ »
وتلبَثُ فى صمتِها برهةً ... لِيفهمَ منها الذى يفهَمُ
ولكنَّهُ لا يُجيرُ الجوابَ ... كمَنْ رَابَهُ أمرُها المُبْهَمُ
فتنطِقُ باسمِ أبيها لهُ ... وتبسم ... يا حُسنَ ما تبسم
فينفِرُ منها نُفُورَ الظليمِ ... وقد ثارَ فى مُقْلتَيْهِ الدم
« أأنتِ ابنةُ النائبِ المُنتدَبْ ... وأهْراكِ .. إنى إذنْ مُجْرِمُ »

فتَرْجِعُ للقصرِ عندَ الأصيلِ ... طريدةَ آمالِها الخائبَهْ
قضَتْ يومَها حافلاً بالشُعُورِ ... كأحفلِ أيَّامِها الذاهبَهْ
فتَشْعُرُ مِثْلَ شُعُورِ الغريبِ ... وإن لم يطُلْ عهدُها غائبه
فتَرْنو إلى البحرِ ... حتَّى تَرَاهُ ... يُثيرُ فى موجِهِ قاربَه
فتنشُدُهُ حُبَّها لو يُصيخُ ... وتُذْرِى له دمعَها عاتبه
أيا حاسِرًا زَنْدَهُ للبحارِ ... تذوبُ له حسرةً قاتبه
أسأْتَ بىَ الظنَّ حتى خجِلْتُ ... ولم تَكُ فى نِيَّتى شائبه
ضربْتَ بحُبِّىَ عُرْضَ الجِدارِ ... وأنكرْتَ مِنْ سُؤْدَدِى جانبه
وغاظكَ أنَّ أبى ظالمٌ ... ألَسْتَ بظُلْمِكَ لى صاحبَه
وتَحْنقُها عَبْرَةٌ فى النعيـ ... ـمِ تُلْهِبُ مِنْ لَوْعِها شاحبَهْ
ويَمْضِى لِطِيَّتِهِ ضاحِكًا ... يُؤَدِّى - عَلَى بُؤْسِهِ - واجبَه

— ٢ —

تَوَالَتْ عَلَى القَصْرِ عِشْرُونَ عامًا ... أَسابيعُهَا مِثْلُ أَعْيَادِهَا
تُوَافِى الفتاةَ عَرُوسًا، فَرُوحًا، ... فأمَّا، تَحِنُّ لِأَوْلَادِهَا
وأعلقَهُمْ بِحَشَاها ابْنَةٌ ... فدَتْهَا الأَهَالِى بِأَكْبَادِهَا
تغنِّى .. فتُصْغِى إليها الطُيُورُ ... وتَطْرَبُ مِنْ حُسْنِ إِنْشَادِهَا
وتَلْمَحُ صُورتَهَا فى المِيَاهِ ... فتضْحَكُ من قَوْلِ حُسَّادِهَا
ولو أنَّهَا نَزَلَتْ فِى الجِنَانِ ... لأَزْرَتْ بِأَجْمَلِ أَوْرَادِهَا
يَخِفُّ إِلَيْهَا نَسِيمُ الرَّبِيـ ... ـعِ يُذَكِّرُهَا يَوْمَ مِيلادِهَا
ووالِدُهَا غائبٌ فى البِلَادِ ... يقومُ بتنظيمِ أَجْنَادِهَا
فيكْتُبُ مُسْتَمْلِحًا لو يَسِيرُ ... إليهِ فيَحْظَى بِإِسْعَادِهَا

وتصْحَبُهَا أُمُّهَا للسَّلامِ ... عَلَى زَوْجِهَا .. وهِيَ لا تبتَسِمْ
فقد علَّمَتْها صُرُوفُ الزمانِ ... بأنَّ الطلاقةَ شىءٌ يُذَمّ
يذمُّ . ولا بِنْتِهَا نظْرَةٌ ... تَبَشُّ إلى كلِّ وجْهٍ - وفَمّ
وتجْرِى بها الفُلْكُ وسْطَ البِحَارِ ... وأَمْوَاجُها دائِمًا تلتَطِمّ
فتُلْقِى بها تارةً كالدلاءِ ... وترْفَعُهَا تارةً كالعَلَمّ
إلى أنْ يَلُوحَ لها - حيثُ لاحَ ... قديمًا - فنارٌ يُنيرُ الظُلَمّ
فتَذْهَلُ وَاجِمَةً ... كالذى ... يَرَى شَبَحًا فى نَهَارٍ دَمّ
وتذكُرُ حُبًّا خَلا فى الوُجود ... لِشَخْصٍ طَوَى صفْحَتَيْهِ القدم
فتبْسم .. لكنَّ فى نَفْسِهَا ... مَرَارَةَ ذِكْرَى تُثِيرُ الأَلَمّ

على أن ذاكَ الفتى لم يَمُتْ ... فقَدْ صارَ نابغةً فى الفُنُون
تلقَّى من الكَوْنِ إلهامَهُ ... ومثَّلَ آياتِهِ فى اللحون
فما هِيَ إلا الضُحى فى امتدادٍ ... وما هِيَ إلا الدُجى فى سُكون
كأنَّ على يدِهِ الوُرْدَ طِفْلٌ ... يبُثُّ الورَى شجْوَهُ بالأنين
يرِنُّ .. فتقْطُرُ منهُ القُلوبُ ... وتأخذُ موضِعَها فى العُيون
ويُصْغِي إليهِ الحبُّ الغيُورُ ... ويُدْرِكُ فى الحُبِّ سرَّ الجُنون